الفصل الرابع

الإيقاع

تمهيد:

لا يمكن أن نعتبر الإيقاع من الفونيمات الثانوية (التطريزية) لكنه يدخل ضمن العناصر الصوتية التي تصنعها الفونيمات التطريزية (المقطع ـ النبر ـ التنغيم...) لهذا يجب دراسة الإيقاع في إطار العناصر التي تصنعه؛ لبيان كيف تصنعه ؟

١. ما الإيقاع ؟

"إيقاع ألحان الغناء، وهو أن يوقع الألحان ويبينها"[١] وهو أيضا جرس موسيقي ناتج عن تفنن في طريق ترديد الأصوات في الكلام، فهو قائم على تكرار منتظم لظاهرة صوتية معينة"[٢] وهذا التكرار قد يكون على مسافات متقايسة بالتساوي أو التناسب لإحداث الانسجام، وعلى مسافات غير متقايسة

(١) القاموس المحيط: للفيروزأبادى، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٧٩ مادة (وقع)

(٢) موسيقى الشعر العربي: د.شكرى عياد ،دار المعرفة، القاهرة ١٩٧٨ ،ص١١٠

أحيانا لتجنب الرتابة"[١]

"والإيقاع في الكلام ناشئ عن التكرار المنتظم لنوع ما من الحركات تكرارا محدثا توقيعا باستمرار اطراد وقوعه. والحركات المرتبطة بإيقاع الكلام هي حركات العمليتين للنبر والمقطع، المكونتين معا ميكانيكية تيار الهواء الرئوية، فإيقاع الكلام أساسا إيقاع عضلي، والعضلات المرتبطة به هي عضلات التنفس... والطريقة التي تتكرر بها النبضات الصدرية والنبرية، أي هيئة تتابعها وتناسقها هي ما يحدد إيقاع اللغة. وهناك طريقتان مختلفان أساسا للجمع بينهما. وتؤدى هاتان الطريقتان إلى إيجاد نوعين رئيسيين لإيقاع الكلام . وتتكلم كل لغة في العالم فيما نعلم مع نوع أو آخر من هذين النوعين. ويعرف الإيقاع في نوع منهما باسم" الإيقاع المقطعي... ففيه يستمد تكرر الحركة المنتظم من العملية المنتجة للمقطع، أي أن نبضات الرئة ومن ثمَّ المقاطع تتكرر على فترات زمنية متحدة، فهي متساوية الزمن... وفى النوع الآخر من نوعى الإيقاع المعروف باسم الإيقاع النبري... يستمد تكرار الحركة المنتظم من العملية المنتجة للنبر؛ فنبضات النبر، ومن ثمَّ المقاطع المنبورة، متساويان الزمن. وتوضح هذا النوع الآخر الإنجليزية والروسية والعربية، فهي لغات منبورة[٢]" فاللغة العربية من تلك اللغات المنبورة؛ وعليه يجب تتبع حركات القفص الصدري مع الحركات المصاحبة للنبر الموجود في تلك الكلمات المنبورة من الآية، وما ينتج عن ذلك من إيقاع متناسق ومنتظم؛ آتٍ من انتظام تلك الحركات الصدرية مع كل نبر في الآية.

(١) الإيقاع التكرارى فى شعر الملك عبد الله الأول بن الحسين، د.علاء الدين أحمد الغرايبة - المجلة الأردنية فى اللغة العربية وآدابها، ص ١٤٥

(٢) مبادئ علم الأصوات العام: ١٤٦

٢. قيمة الإيقاع:

إن الإيقاع نشاط نفسي لدى المتلقي، وهذا النشاط النفسي لا يتحقق إلا عن طريق تفاعل المتلقي مع النص، وهذا التفاعل يرتبط كيانه بدرجة الإيقاع التي يتميز بها النص. يبين لنا الكلام السابق أن الإيقاع هو: تكرار ظاهرة صوتية أو أكثر على مسافات معينة تساعد على تحقيق ما يعرف باسم الجرس الموسيقي"[١]

يربط الإيقاع بين السامع والمتكلم من خلال الإدراك الذي يحدث في نفس المتكلم وينتقل للسامع؛ فيتقمص ذلك الشعور الذي نشأ لدى المتكلم وانتقال إلى السامع المسمى "التقمص الوجداني الصوتي"، يقول ابركرومبى: وهناك فحاوي هامة بخصوص الإدراك هنا، فإيقاع الكلام يتذوق بوصفه إيقاع حركة، ومن الجلي أن المتكلم يتذوقه مباشرة بتلك الطريقة،فماذا يكون الأمر بخصوص السامع؟ يمكننا أن نقول إنه أيضا يتذوق إيقاع الحركة بالنيابة فهو، بمعنى ما، متكلم أيضا." [٢]

٣. العلاقة بين الإيقاع والمقطع والنبر في القرآن:

يرتبط الإيقاع بالمقطع والنبر؛ فالمقطع والنبر يمثلان عنصرين أساسيين من عناصر الفونيمات فوق التركيبية، وتكوين الإيقاع، ولهذا اخترتهما ليكونا موضوع دراستي للفونيمات فوق التركيبية في سورة الواقعة، وهي سورة مكية "قال ابن عطية إجماع من يعتد به من المفسرين، وقال القرطبي عن قتادة وابن عباس استثناء قوله تعالى ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ نزلت بالمدينة"[٣] وقد ذكر د. عبد الصبور شاهين أن " أهم النصوص النثرية التي تحقق فيها عنصر الإيقاع سور القرآن الكريم المكية ذات الآيات القصار المتساوية في التكوين حيث يقول: غير أن الشعر لا ينفرد بالاعتماد على عنصر الإيقاع، فهناك أنواع من

---

(٣) نظرية القوة الإيقاعية فى الخطاب اللغوي: حازم كمال، مكتبة الآداب ٢٠١٢ ص١٨.

(٢) مبادئ علم الأصوات العام: ١٤٧.

(٣) التحوير والتنوير مجلد ١١ ج ٢٧ ص ٢٧٩ الطاهر بن عاشور. دار سحنون للنشر تونس ١٩٩٧.

النثر تعتمد عليه كذلك، ولاسيما النثر الخطابي الذي يستخدم اللغة الانفعالية... فالإيقاع عنصر يختص بالكلمة، أي مجموعة الأصوات، ويتركز على مقطع بذاته منها، طبقا لنظام خاص بكل لغة على حده[١]

ثم يذكر مثالا على السور المكية من أول سورة الرحمن، وذكر بعده "تجد أن تساوي التكوين في الآيات قد أبرز عنصر الإيقاع إبرازا مدهشا، وهو أمر أساسي في بناء القرآن المكي في الغالب" وهذا القول جعلنا نتدبر آيات سورة الواقعة، فهي مكية أيضا؛ لنرى ما فيها من الإيقاع الصوتي المتميز؛ الذي تعاون في تكوينه كل من النبر والمقطع وعناصر صوتية أخرى سوف نذكرها بعد الحديث عن النبر والمقطع.

إن الإيقاع يرتبط بالمقطع عن طريق أن الثاني سبب في إيجاد الأول، فعن طريق انتظام المقطع وتواليه في نسق معين ينتج لنا الإيقاع، يقول د.أيوب: "إذا أخذنا عددا من الأحداث اللغوية المتوالية التي تكوّن فيما بينها حديثا، لاحظنا أن الضغوط التي تقع على المقاطع تحدث بصفة منتظمة،...ومعنى هذا وجود اطراد في الطريقة التي يحدث بها الضغط، والإيقاع هو الجانب السماعي للضغط، فهذا الأخير أمر مادي يحدث في جسم المتكلم، وهو يتمثل في عدد من الحركات العضلية التي تدفع الهواء على نحو معين، أما الإيقاع فأمر وجداني يدركه السامع. وكل من الضغط والإيقاع أمر خاص بمقطع أو مجموعة من المقاطع المتوالية التي يظهر الفرق فيها بين الضغط القوى والضغط الضعيف ويستبين السامع فيه نوعا من الاطراد يدركه سماعا"[٢]

"إن المدخل إلى دراسة الإيقاع لا يكون إلا من خلال معرفة المقاطع اللغوية العربية المختلفة الكميات وما يتصل بذلك من قواعد النثر في الكلام"[٣]

ولكننا قبل أن ننطلق مع بعض عناصر الإيقاع القرآني في المقطع والنبر لابد

---

(١) علم الأصوات: ٢٠٠

(٢) أصوات اللغة: ١٥١ ـ ١٥٢

(٣) البيان فى روائع القرآن: ٢٥٧

أن نفهم فكرة الإيقاع أكثر، لأن هذه الآيات المحكمات تجمعت فيها عناصر الإيقاع، فكونت نغما خاصا بها، جذب القلوب إليها لما جُبِلتْ عليه تلك القلوب من ميل إلى النغم الهادئ والتراتيل الإيقاعية المتناسقة، ونحاول هنا أن نعرف سر هذا النغم، وذلك الإيقاع من خلال سورة الواقعة.

إن الإيقاع في القرآن ليس نتيجة اتحاد كميات الكلمات، مما يؤدي إلى تشابه بينهم ليؤدي إلى وقوع النبر فيها على صورة واحدة، فيجيء الإيقاع متساوي المسافات رتيبا مملا، يقول د.تمام حسان (ولكن اختلاف الكلمات طولا وقصرا وتجردا وزيادة واتصالا وانفصالا حال دون هذه الرتابة وذلك الملل وجعل للغة إيقاعا لا مجرد وقع، ولكن الإيقاع المقصود هو إيقاع في نطاق التوازن، لا في نطاق الوزن، فالوزن في العربية للشعر والتوازن في الإيقاع للنثر، والذي في القرآن إيقاع متوازن لا موزون.

"إن الوزن والتوازن كليهما من صور الإيقاع، وهما أيضا من القيم الصوتية التي تصلح أن تكون مجالا للفن والجمال... أما التوازن فيكفي أن تنصت إلى صوت قارئ مجيد يرتل القرآن الكريم... وسترى عندئذ أن ما في القرآن من جمال التوازن قد يجاوز أحيانا جمال الوزن، وانظر كذلك إلى الكثير من أساليب الترتيل - وبخاصة ما بني منها على قصار الجمل - وسوف ترى لها جاذبية خاصة تجذب إليها انتباهك، وتمنح أذنك من المتعة ونفسك من الارتياح مالا تجده في بعض الشعر والغناء.

وكلما تقاربت أعداد المقاطع بين النبرين أو انتظم؛ اختلاف بعضها عن بعض حسن إيقاعها والعكس صحيح، بمعنى أن هذه الكلمات بين نبر وآخر إذا تباينت، ولم تتقارب أحس السامع كأن المتكلم يتعثر في مشيته، بل إن المتكلم نفسه لابد أن يحس هذا الإحساس. أما هذا التقارب وذاك الانتظام فهو الذي تجده في إيقاع الأسلوب القرآني[1].

(١) البيان في روائع القرآن ٢٦٩-٢٧٠

ونلاحظ في كل هذا الكلام للدكتور تمام أن الإيقاع القرآني يقوم على عنصرين أساسيين هما: النبر والمقطع، فلو حاولنا فهم الإيقاع الموجود في آيات سورة الواقعة من خلال ملاحظة هذين العنصرين (المقطع والنبر) لبدت لنا صورة الإيقاع في سورة الواقعة أوضح.

الفاصلة

الفاصلة في القرآن" هي كلمة آخر الآية، في كتاب الله، قال ابن منظور: وأواخر الآيات في كتاب الله فواصل، بمنزلة قوافي الشعر... واحدتها فاصلة، وقال الزركشي: هي كلمة آخر الآية، كقافية الشعر، وقرينة السجع"[١] ويعلق د. مختار عمر على هذا التشبيه للفاصلة بقوافي الشعر والسجع بقوله" وواضح من تشبيه القدماء للفاصلة القرآنية بقافية الشعر أو قرينة السجع محاولة توجيه النظر إلى الجرس الصوتي، والملاءمة اللفظية أكثر من لفت الانتباه إلى المواءمة الدلالية، والارتباط العضوي بين مضمون الآيات وخواتمها، وليس هذا صحيحا على الإطلاق حتى إن بعض القدماء قد لاحظ في الفواصل القرآنية تبعيتها للمعاني بخلاف الأسجاع التي تتبع المعاني فيها الألفاظ." [٢]

هذا القول يجعلنا نربط بين الفاصلة القرآنية وعدة قضايا:

١. الإيقاع الصوتي للفاصلة القرآنية: مما يتكون ؟ وكيف نلاحظه؟

٢. أثر هذا الإيقاع الصوتي على المعنى الموجود في الآية .

أولا: تكوين الإيقاع في الفاصلة:

أجاب د. مختار عن قضية العناصر الصوتية التي تكوين الإيقاع في الفاصلة بقوله: لإبراز الجانب الموسيقي في الفواصل، ومراعاة متطلبات الإيقاع ومقتضيات التلاؤم النغمي راعت الآيات ما يلي:

---

(١) لسان العرب: مادة الفصل ، والبرهان ٥٣/١

(٢) دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته: د.مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة٢٠٠١، ص٧٣

١. بناء كثير من الفواصل على الوقف حتى لا يختل الإيقاع...

٢. تفضيل كثير من الفواصل لأصوات معينة لحرف الروي وختامها بحروف المد والنون تمكينا للقارئ من تحقيق الترنم والتمكن من التطريب بذلك، ... ويمكن أن يضاف إلى النون الميم، فهما الصوتان الأنفيان الوحيدان في اللغة مما يسمح بالتنغيم والترديد، ... ومع القيمة الخاصة للنون والميم نجد القرآن يلون وينوع أواخر الفواصل ليحدث تنوعا في الإيقاع تبعا لنوع الموضوع والتعبير، وإن كان الغالب الانتهاء بحرف المد واللين وإلحاق النون"[١]

وقد حدث هذا الانسجام الصوتي في سورة الواقعة في فواصلها الناتج عن نهايتها بصوتي النون والميم؛ وقبلهما صوت الواو أو الياء بكثرة؛ وقد سبق أن ذكرت بيانا إحصائيا لهذه النهايات في موضع فائت من هذه الدراسة، وكذلك شيوع هذا التركيب الصوتي مع المقطع الأخير من الفاصلة الذي أتى من النوع (ص ح ح ص) فكون انسجاما صوتيا وإيقاعا متميزا.

أنواع التماثل الصوتي في الفاصلة:

ويذكر د. مختار عمر صورا للتماثل الصوتي الحادث في الفواصل القرآنية وأنه يأتي في عدة صور منها:

١. أن الفواصل القرآنية قد وردت متماثلة في حروف مقاطعها، وتسمى المتجانسة أو ذات المناسبة التامة نحو: الطور وكتاب مسطور في رق منشور[٢]

٢. متقاربة في حروف مقاطعها، وتسمى ذات المناسبة غير التامة نحو:

أ ـ الرحمن الرحيم/ مالك يوم الدين"[٣] (تقارب الميم والنون).

ب ـ "والقرآن المجيد .../ هذا شيء عجيب"[٤] (تقارب الدال والباء).

---

(١) دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته: ٧٤

(٢) الطور: ١ـ ٣

(٣) الفاتحة: ٤، ٣

(٤) ق: ٢، ١

٣. وقد ترد بصورة شتى منها:

أ. متوازية تتفق فيها الكلمتان في الوزن وفى حرف الفاصلة نحو "فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة"(١)

ب ـ غير متفقة في الوزن ولكن في الحروف فقط نحو: "ما لكم لا ترجون لله وقارا/ وقد خلقكم أطوار"(٢)

ج ـ متوازنة أي متفقة في الوزن دون الحروف، نحو: "وآتيناهما الكتاب المستبين / وهديناهما الصراط المستقيم"(٣)

د ـ كما جاءت محققة الاستلزام، وهو أن تلتزم حرفا أو أكثر قبل حرف الفاصلة.

- "فأما اليتيم فلا تقهر / وأما السائل فلا تنهر"(٤) (الهاء قبل الراء).
- "ألم نشرح لك صدرك / ووضعنا عنك وزرك"(٥) (الراء قبل الكاف).
- "والطور / وكتاب مسطور"(٦) (الطاء والواو قبل الراء).
- "فإذا هم مبصرون / ثم لا يقصرون"(٧) (الصاد والراء و الواو قبل النون).

٤. الإشارة الصوتية على نهاية السورة: أن السورة قد تنتهي بفاصلة منفردة الإيقاع تكون كالمقطع الأخير المومئ إلى الانتهاء ، كقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾(٨).

---

(١) الغاشية: ١٤، ١٣

(٢) نوح: ١٤، ١٣

(٣) الصافات: ١١٧، ١١٨

(٤) الضحى: ٩، ١٠

(٥) الشرح: ٢، ١

(٦) الطور: ٢، ١

(٧) الأعراف: ٢٠١، ٢٠٢

(٨) الضحى: ٩-١١. وانظر دراسات لغوية فى القرآن الكريم وقراءاته ص٧٧

هذا القول السابق يدعونا إلى النظر في فواصل سورة الواقعة في ضوء المعطيات التي يعرضها علينا عالمنا الجليل، وما لاحظه علماء السلف العظام كالزركشي؛ لكي نلاحظ مصدر هذا التماثل الصوتي الحادث في فواصل آيات السورة. فنجد أن كل حالة مما ذكرها أستاذنا لها نموذج في سورة الواقعة؛ بل هناك نماذج أخرى لذلك التماثل وصلتُ إليها في السورة لم يذكرها في حديثه السابق. وهذا الأمر يبدو جليا من خلال تقسيمي للسورة إلى مجموعات؛ ذلك التقسيم الذي انطلقتُ فيه من فكرة التماثل الصوتي في فواصل كل مجموعة، ولهذا كان لزاما علىّ بعد عرض كل مجموعة الإشارة إلى صور التماثل الصوتي في فواصل تلك المجموعة؛ ذاكرا كل ما قاله د. مختار عمر وما وصلت إليه من جديد من خلال تلك الدراسة.

ثانيا: العلاقة بين الصوت والمعنى في الفاصلة:

يقول د. مختار عمر" إن جميع الفواصل في القرآن لم تقتصر على مراعاة حسن النظم فقط، وإنما راعت مع ذلك ـ وقبله ـ جانب المعنى، فحققت بذلك إيقاعها الفريد، وبلاغتها العليا في مطابقتها لمضمون ما قبلها...على سبيل المثال:

أ ـ حذف كاف الضمير في سورة الضحى في: قلى، فآوى ، فهدى، فأغنى. لم يراع الفاصلة وحدها، وإنما حقق حكمة بلاغية. فقد حذف من (قلى) لتجنب خطابه تعالى المصطفى في موقف الإيناس بصريح القول: وما قلاك. لما في القلي من حس الطرد، والإبعاد، وشدة البغض... وأما التوديع فلا شيء فيه من ذلك... وحذف كاف الخطاب في الفواصل بعدها لأن السياق بعد ذلك أغنى عنها.

ب ـ التقديم والتأخير: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾[1] ليس لمراعاة الفاصلة وحدها، ولكن لمراعاة المعنى كذلك، حيث جاء الكلام في سياق البشرى والوعيد، إذ الآخرة خير وأبقى، وعذابها أكبر وأشد وأخزى،

(١) الليل: ١٣،١٢.

وبهذا الملحظ البياني قدمت الآخرة على الأولى في سياق البشرى للمصطفى بآية الضحى: وللآخرة خير لك من الأولى...

ج- تغيير نمط التعبير، كما في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾[١]. حيث لم يقل كما هو متوقع: وإما أن نلقى" فتغيير النمط لم يحقق مراعاة النغم الموسيقى فحسب، ولكنه يكشف عن رغبة القرآن في تصوير نفسية هؤلاء السحرة، وأنهم لم يكونوا يوم تحدوا موسى بسحرهم خائفين أو شاكين في نجاحهم، وإنما كان الأمل يملأ قلوبهم في نصر مؤزر عاجل. ومعنى هذا أن القرآن حتى في مراعاته للملاءمة اللفظية كان يضع في اعتباره أولا وقبل كل شيء جانب المعنى، واتساق خواتم الآيات، وتناسبها مع السياقات التي ترد فيها، والأغراض التي جاءت من أجلها[٢].

هذا القول يسمح لنا أن نلاحظ ما بين المعنى والصوت بأنواعه من توافق في فواصل سورة الواقعة، حيث نلاحظ- كما سنرى في الجانب التطبيقي- هذا التوافق بصورة متكررة، دونَّاها في موقعها من البحث في نهاية كل تحليل عرضناه لكل مجموعة من مجموعات السورة.

الفرق بين الفاصلة القرآنية وقوافي الشعر:

الفاصلة: هي نهاية الآية وتشبه نهاية قافية البيت الشعري- كما ذكرت آنفا- ولكن هناك فروق كثيرة بين القرآن الكريم والشعر، أولها وأهمها أن القرآن ليس شعرا، وهذا ما أراد الحق تبارك وتعالى أن يثبته لبلغاء العرب من أهل قريش، فهو يحقق أبلغ مما يحققه الشعر من الانسجام الصوتي الموجود في نهاية البيت من خلال الوزن والقافية - ولكن دون أن يكون هناك وزن ولا قافية، إنه لسر من أسرار هذا القرآن العظيم.

فلو عقدنا مقارنة بين ما في الشعر من جمال صوتي ناتج عن التزام الوزن

---

(١) طه: ٦٥.

(٢) دراسات لغوية فى القرآن الكريم وقراءاته ص٧٨، ٧٩.

والقافية؛ وبين الفواصل القرآنية ومالها من انسجام صوتي لوجدنا الفارق كبيرا

"إن تقفية الشعر تعني تطابق خواتم الأبيات من الناحية الصوتية، وقد جعلوا الالتزام بالقافية جزءا من عمود الشعر الذي لا يكون الشعر شعرا إلا به، وفي القرآن من الفواصل ما يتشابه جرسه في الأذن ولا يتطابق بالضرورة في الحرف...ويمكن تلخيص الفروق التي بينهما فيما يلي:

أ ـ تتطلب القافية التطابق التام بين عدد من الحروف في آخر كل بيت من القصيدة... بل إن ذلك التزام أيضا في شطري مطلع القصيدة على نية التصريع... [١] "أما الفاصلة: فلا تلزم شيئا من ذلك إذ تراها تجرى في عدد من آيات السورة على نمط ، ولكنها سرعان ما تتحول عنه إلى نمط آخر، وفى خلال جريها على نمط واحد قد يكون ما يقوم عليه النمط مقصورا على حرف مد فقط كما في قولة تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [البقرة ٧-٨] فلا تصلح إحدى الفاصلتين أن تقفو الأخرى في شعر، وقد يقوم النمط على صفة من صفات حرف في الفاصلة كصفة الضيق مثلا { والمقصود ضيق الفم بتقريب جزء من جسم اللسان من الحنك الأعلى أثناء النطق } وهي الصفة التي يشترك فيها الواو والياء، كما في قوله تعالى بعد الآيتين السابقتين ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [البقرة ٩] فهل يصلح للتقفية أن تقوم على توالي ثلاث كلمات مثل التي انتهت بها الآيات الثلاث {عظيم - مؤمنين - يشعرون}؟!

ب ـ وفي كثير من سور القرآن لا يلتزم شيئا بعد الحرف الضيق {الواو أو الياء} كما في سورة الحج، فإذا قرأت هذه السورة مثلا وجدت فواصل الآيات لا تحمل شبها أي شبيه بالتقفية لأن فواصل الآيات تجرى على النحو التالي: عظيم - شديد - مريد - بهيج - قدير ـ القبور ـ منبر ـ الحريق ـ للعبيد ...." [٢]

---

(١) البيان فى روائع القرآن: ٢٧٥.

(٢) البيان فى روائع القرآن: ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

"وقد جاءت الياء في سبع وخمسين فاصلة، وجاءت الواو في عشرين، والألف في فاصلة واحدة، ولم يلتزم حرف من الحروف بعد الياء ولا بعد الواو.

"ولسنا نجد شيئا مما ألتزمته الفواصل القرآنية يصلح أن يكون قافية. فالواو والميم في الشعر لا تقفو الياء والنون، وكذلك لا يكفي للقافية أن تعتمد على المد الضيق دون نظر إلى ما بعده من بيت الشعر...، وكذلك لا يكفي القافية أن يكون الحرف الأخير ألفا مطلقا إذا اختلفت حركات ما قبلها وسكن به، فلا يعد من التقفية أن تتوالي كلمات مثل: عجبا – همسا – تسلما... كما في سورة الأحزاب، و مغزى ذلك أن مطالب الفاصلة تختلف اختلافا تاما عن شروط القافية. "[1] هذا رأي د. تمام حسان في الفاصلة والقافية، ونضيف إلى ما قال أستاذنا الجليل السؤال التالي: ما الفاصلة؟

الفاصلة: الكلمة التي في نهاية كل آية، فهي تختلف عن القافية الشعرية في:

أ - أن القافية تأتي في نهاية كل بيت مسبوقة بكلمات متساوية في الوزن مع البيت الذي بعده، فهي تأتي بعد عدد محدد (تقريبا) من الأصوات، وتنتهي بالصوت نفسه الذي في البيت التالي والسابق لها. وهذا لا يحدث في الفاصلة القرآنية؛ فهي تأتي بعد عدد من الكلمات والأصوات غير المتطابقة من حيث الوزن والنوع مع الآية التي تليها أو تسبقها، ولهذا يختلف محتوى الآية مع الآية الأخرى، ولا يختلف محتوى البيت مع الذي بعده أو قبله، إلا في السور ذات الآيات القصيرة (كما في سورة الرحمن والواقعة)، ولهذا نرى إلحاح العلماء على ملاحظة مثل هذه الصور صوتيا. حيث يظهر الإيقاع في التناسق الصوتي الحادث بين تلك الآيات القصار.

ب- يشير د. تمام إلى أن الفاصلة لا تلتزم ما يلتزم به الشعر من صوت واحد في نهاية القافية، ونضيف إلى ما قاله عالمنا الجليل إن الفاصلة لم تلتزم بما

(١) البيان في روائع القرآن: ٢٧٨-٢٧٩.

التزمت به القافية الشعرية، بل التزمت بالمقاطع المتماثلة في نهاية كل فاصلة٠ فالمقطع الأخير من الفاصلة الذي يحتوي على صوت مد (صوت ضيق كما يقول د. تمام) كوّن لنا من هذا التماثل المقطعي مقطعا من النوع (ص ح ح ص) يتكرر في نهاية كل فاصلة كما في سورة الحج الذي استشهد بها، وهذا الالتزام أغناه عن الالتزام بتكرار الحرف الأخير فكوّن نغما خاصا بسورة الحج بعيدا عن القافية ذات الصوت الواحد المتكرر بالمقطع الواحد مع مجموعة أصوات متشابهة.

بديل القافية الشعرية: كان البديل عن القافية الشعرية عدة أمور:

١. الالتزام بالمقطع الواحد في نهاية كل فاصلة غالبا.

٢. النبر الأولى الموجود على هذا المقطع.

٣. الالتزام بوزن واحد في كل فواصل هذه السورة غالبا(الحج) وهو وزن فعيل: عظيم - شديد - مريد - سعير - هيج - قدير، ثم ينتقل إلى وزن قريب منه ليكسر الملل، ثم يعود إليه وهو وزن فعول بإبدال الياء واوا، ثم العودة السريعة إلى الياء حتى لا يغلب عليه نظام الشعر حتى في هذا الجانب، بل يحطم ذلك التكرار بكلمة (قبور) بعد الفاصلة السادسة وبكلمة (يشاء) بعد الفاصلة السابعة عشرة، ثم يعود سريعا إلى (فعيل) ثم يُذكِّرُنا بالفاصلة الأولى (فعول) بفاصلة (جلود) بعد (فعيل)، ثم يستمر مع فعيل مرة أخرى، ثم يعود إلى فعول بكلمة سجود... هكذا في تبادل مستمر بينهما مع غلبة "فعيل" ليكون هو النغم السائد على الإيقاع العام للفاصلة في آيات السورة كلها.

والعجيب في ذلك هو التبادل بين فعيل و فعول التي لا يمكن أن يدخل تحت قاعدة تحكمه، بل هو في تناوب وتبادل غير محدد، فلا تتوقع الكلمة القادمة كما في قوافي الشعر، بل يفاجئنا مع نهاية كل فاصلة بشيء منهما لا نتوقعه، ولكن يغلب على الآيات وزن فعيل مع أغلب الفواصل؛ ثم يليه فعول٢، إلى جانب هذا التوالي والتتابع الذي لا يخرج عنه، وهو توالي المقطع (ص ح ح ص) فالاتزان الذي لا يخرج عنه أبدا هنا هو اتزان مقطعي.

٤- الالتزام بعلامة الإعرابية واحدة في فواصل بعض السورة[١]، (وذلك لكي تحافظ على الانسجام الصوتي عند الوصل بين فاصلة الآية وأول الآية التي تليها) كما نرى في سورة الأحزاب التي تمسكت بحالة النصب في كل الفواصل؛ مما أدى إلى تحويل المقطع (ص ح ح ص) في نهاية الفاصلة إلى مقطعين لوجود النصب،(هذا في حالة الوصل بين الآيات دون الوقف عند الفاصلة) فأصبح الحرف الأخير ألفا مطلقا على الرغم من اختلاف حركات ما قبلها وسكناتها؛ فلو نظرنا إلى هذه الآيات من سورة الأحزاب لوجدنا الفاصلة الأولى تنتهي بقوله تعالى (إن الله كان عليما حكيما) فالكلمتان الأخيرتان تتفقان في الوزن "فعيل" والإعراب بالنصب (خبر كان) والحرف الأخير (الميم) قبلها ياء مد، وكلاهما يتكون من التركيب المقطعي نفسه: { ع/ لي/ م + ن } * { ح/ كي/ م + ن } وهو التركيب المقطعي للكلمتين نفسهما إذا وقفنا عند كل كلمة مع تنوينها ونصبها، ثم تأتي الفاصلة التالية على الوزن والتركيب المقطعي نفسه؛ مع تغيير في الحرف الأخير من الميم إلى أقرب الأصوات للميم في الصفات وهو الراء، ثم الفاصلة التي بعدها مع غير الراء وهو اللام، والمعروف أن كلا من اللام والراء والميم يتم التبادل بينهم، فهي - كما ذكرت آنفا - أصوات مقطعية، ويتم التبادل بين الفواصل في نهاية كل السور بين هذه الأصوات، وكأنها صوت واحد في نهاية كل فاصلة، وكأنها قافية وليست بقافية، بل هي أصوات ذات نغم واحد، وجرس واحد، فكانت بذلك بديلا للقافية.

بل إن الحق تبارك وتعالى يكسر هذا التكرار بأصوات أخرى، مثل الزاي والقاف، ولكن مع الوزن فعيل نفسه، نحو (عزيزا - فريقا) أو بوزن قريب هو مفعول، نحو (مقدورا - معروفا) إن هذا الاختلاف في نهاية الفواصل والاتفاق

---

(١) نقصد العلامة الإعرابية وليست الحالة الإعرابية؛ فالأولى تعنى الصوت الذي تنتهى به الكلمة، أما الثانية فتعنى سبب ذلك الصوت، لذا قد تتفق الكلمتان فى الحالة الإعرابية (الرفع) وتكون العلامة فيهما مختلفة نحو: الرفع فى الاسم المثنى، وفى الاسم المفرد.

الذي يتم في بعض العناصر الصوتية التي أشرت إليها لهو قمة من قمم الإعجاز القرآني، حيث لا يلبس المرء أن يهتدي لعنصر صوتي يشير إلى تكرر نغم معين حتى يفاجأ بكسر هذا العنصر وظهور عنصر آخر.

يقول د. تمام حسان عن سر جمال الفاصلة (تأتي الفاصلة في نهاية الآية لتحقق للنص جانبا جماليا لا يخطئه الذوق السليم لأننا مهما يكن من شيء نحس أنها تضفي على النص قيمة صوتية منتظمة ينقسم سياق النص بها إلى وحدات صوتية تعد معالم للوقف وللابتداء، وتتضافر مع الإيقاع الذي سبق شرحه؛ فينشأ من تضافرهما أثر جمالي لا يبعد كثيرا عما نحسه من وزن الشعر وقافيته، ولكن هذا الأمر يختلف عن ذلك بالحرية من كل قيد تفرضه الصنعة على الوزن والقافية..والفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة نراها في كثير من آيات القرآن وربما أدت رعايتها إلى تقديم عنصر أو تأخيره من عناصر الجملة، ... وهذه الوظيفة جمالية تستحق الرعاية ولو تعارضت رعايتها مع بعض أنماط التراكيب النحوية)[1]

ومن هنا نرى أن عناصر التناسق الصوتي في الفاصلة يأتي من تحقيق التناسق بين المقاطع، ومن التساوي في مواضع النبر؛ والفترة الزمنية بينها، فيصنع ذلك إيقاعًا متميزًا مع كل فاصلة، كما سنرى من خلال هذه الدراسة.

(١) البيان في روائع القرآن: ٢٧٩